فجائع البائسين

« تابع ما قبله »

٨

بعد ما قبرت شهيرة ابنها انشأت تفكر فيما يؤول اليه امرها لانها ادركت انقطاع اجرة الحضانة وزوال العلاقة التي كانت تربطها بسعيد ولم يبق بينهما غير عقد الزوجية فادركت ايضاً ان استصدار الحكم عليه بمائة ليرة يمنعه عن الطلاق اذا ارادت ان يطلقها فما وجدت انفع من الرجوع اليه والرضا به وكان بلغها انه يسعى في زواج غيرها فاضربت لامبا عما يخالج ضميرها وقالت لها إنها تود الرجوع الى زوجها قبل ان يقترن بغيرها فأخذتها على افكارها وطمنتها بقولها : انه لا يقدر على الزواج لان الناس علموا بما جرى بينكما فيخافون على بناتهم من ان يصرن الى ماصار اليه امرك . ثم قالت : وليس كل الناس مثلنا قليلي العقل والبصيرة .

— ماذا جرى لي حتى يمتنع الناس عن تزويجه بناتهم اما كنت انت السبب في تنافرنا ونحن كنا راضين من بعضنا وكان الصفاء ملازمنا والهناء يرافقنا فانت التي كدرت صفاءنا بتصوراتك الدنيئة فلو كنت تركتينا وشأننا لما حدث شيء بيننا ولكن طمعك الذي ادّى بنا الى الفراق وبعث فينا روح الشقاق فاسألك بابيك ماذا تبغين مني ؟ ألست بالغة سن الرشد والكمال ؟ فلماذا لا تتركينني حرة في اعمالي اتصرف بها كما اشاء ؟ فان كان قصدك قتلي وهلاكي فبئست الامهات اللواتي تبدلن سعادة بناتهن بالشقاء واني لا ادرك غرضك من اقترافنا مع اننا كنا على وئام وسلام يحسدنا عليهما من سمع بما قامت عليه قواعد ائتلافنا

— مالي اراك اليوم تشتاقين الى زوجك الذي هو مطية العار فلا عاش الرجال ؟

— لم ار سبة بانتسابي اليه اما انت التي سعيت في زواجي به ؟ وهل كان مجهول الاحوال لديك ولدى اخي الذي رافقه ثماني سنين وانا على علم من انه لا يزال كما كان عليه من قبل وما يخيل لي ان احداً مثلي بين الناس قبل رأيت ام سمعت برجل يعامل امرأته بالمساواة ويسعى فيما يرضيها بكل ما امكنه في هذه البلاد ؟ من لي برجل يعاملني هذه المعاملة الحسنة ؟ على اني اعجب من اعمالك مع اصهارك . الست انت التي كنت سبباً في طلاق أختي حتى انها بقيت محرومة من الزواج ؟ وهي لا تزال في كمد واسف على زوجها مع اني اعلم كل العلم ان الامهات تحب اصهارهن اكثر من بناتهن وانت على العكس

تبغضينهم فتنفرينهم من بناتك حتى تحرمين منهم . اما سمعت قول بديعة التي طلبت اختي الصغيرة انها اعجبتها وودت تزويجها بابنها ولكنها خافت على ابنها منك فها انت قد اشتهرت بين الناس بسوء الخلق وردىء الطباع

— لقد تجاوزت حدك ياشهيرة فانت لاتزالين في سن الطفولية لاتميزين الصالح من الطالح وانا أخطأت بقبول سعيد زوجاً لك ولكني سأجتهد في التكفير عن خطئي واصلاحه فلا تأسفين على هذا الرجل الدنيء الاصل الفقير الحال وايقني انه عندما يثبت طلاقك ازوجك وتعيشين معه عيشة لا يشوبها كدر ولا يتخللها شقاء . او تحسبين اننا في خطر من الرجال ؟

— اما لتتقين الله في سعيك لاثبات طلاق لااصل له وهب انك وفقت الى اثباته بشهادة شهود الزور والبهتان وحكم القاضي بتفريقنا واعطاني اعلاماً شرعياً باني مطلقة فهل يكون الطلاق موافقاً لحقيقة الشرع الشريف

— لا ! ولكن نكون اخذنا لك مائة ليرة

— فاذا كنت لاازال على عصمته كيف يتسنى لي ان اتزوج بغيره

— تتزوجين باعلام الحاكم وحكم الحاكم امر مقضي يعمل به ويقوم مقام الطلاق

— في اي ديانة واي شريعة وجدت هذا الجواز وهذا الحكم المعقول او تحسبين اني لااخاف الله تعالى بانتقالي الى عصمة رجل وانا على عصمة غيره فاذا كان طمعك بالمائة ليرة التي تودين اخذها زوراً وبهتاناً فلا حاجة لي بها ولا اود ان اعصي الخالق طمعاً في حطام الدنيا أو نسيت ان من يغتنون الدراهم بطرق غير مشروعة لا يصرفونها الاَّ على امراضهم و يدفعونها ثمن ادوية واجرة اطباء وهم يقضون آخر ايام حياتهم في انحس الاحوال وقد يتمنون الموت فلا يجدونه واذا تزوج زوجي وهجرني هجراً نهائياً كيف تصير حالي فهل لي حينئذ سوى البكاء والنحيب حتى تستولي عليَّ الامراض واروح في فراش الاسقام والعلل فاموت شهيدة سوء تصرفك

— انت تظنين انه يتزوج ويطيق هجرك . ستريين انه متى يئس من الزواج بتوسطك من يرجعك اليه و يدخل تحت حكمنا فنتصرف به كما نشاء

— انت تحسبين انه لا يتمكن من الزواج واذا شعرت بانه سيوفق لأن كثرة البنات وبقاءهن من غير زواج وفساد هذا العصر يدعو العقلاء للتسابق في زواج بناتهم وانا على يقين من انه سيهجرني فاما ان اموت واما ان ارجع اليه من هذا التشوز فاكون تحت سيطرة امرأته الجديدة فان مت تكونين انت الجانية عليَّ وان رجعت اليه تكونين سبب بؤسي وشقائي بعد ما كنت سعيدة

لقد فهمت انك تودين الرجوع اليه قاتل الله بنات هذا العصر اللواتي لا يطقن الصبر ساعة — فليخطر ببالك ما تشائين فاني اعزه واحب الرجوع اليه قبل ان يتزوج

ثم قامت وتركت أمها ودخلت حجرتها واغلقت الباب عليها واخذت تبكي وتندب حظها وتلوم نفسها على اطاعة امها

مضت على هذه المحاورة هنيهة وجيزة فدخلت على شهيرة احدى صويحباتها التي كانت تتسم الاخبار عن زوجها وتأتيها بها فقالت لها اتدرين ماذا جرى ؟ قالت : لا

ان سعيداً عقد له على جميلة خانم ابنة علي باشا فصاحت قائلة : آه . واغمي عليها . فتقدمت هذه على اخبارها ثم اتت بالماء والعطريات ورشت على وجهها وجعلت تفرك يديها وتدغكها حتى تنبهت فاخذت تبكي وتلعن امها التي سببت لها هذه النقمة وتفكر فيما حلّ بها فايقنت انها ستفارقه ابد الدهر وانه سيحتفظ بعد الآن بود جميلة خانم ولا يسأل عنها وقد دخلت امها فاخبرتها بواقعة الحال وقالت لها : كنت تظنين انه لا يتزوج فها هو قد اقترن باحسن ابنة في بلدنا فانقطع املي بلقائه واظن انه لا يطلقني ولا يأخذني اليه الا اذا رقت زوجته لحالي فاكون تحت امرها وارادتها فبذه نتيجة اعمالك القبيحة

فأدركت امها خطأها وأخذت تلطفها بالكلام وتعدها بالآمال ثم دعت ابنها رفيقاً وعزموا على اقامة دعوى الطلاق مرة ثانية واتوا بشهود غير الاولين وعينوا يوم الجلسة يوم عرسه ليتغصوه وظنوا انهم يوفقون الى اخذ الحكم عليه فيكون يوم عرسه يوم نحسه ولم يدر في خلدهم ان يوم عرس المرء في غالب الاحوال يكون يوماً مباركاً ولا يخطر ببال العروسين سوى السعادة ففرح بما اتوه ولم يتنغص وايقن انه سينتصر عليهم لانهم حضروا الدعوى في يوم كان عنده اشرف الايام واحسن يوم وصاله ونيل آماله فذهب رحيب الصدر عالي الهمة ودخل المحكمة فأقيمت الدعوى وضبطت الافادات فشهد الشهود بما تعلموا لا بما علموا فجرح شهادتهم واقام البراهين فانتصر عليهم واخذ الحكم مرة ثانية بوجود الزواج وعاد رابحاً ورجعوا خائبين وكان ما كان . فاستولى الكدر على شهيرة واعترها الارق ولازمها الحزن والبكاء فنحل جسمها وتبدلت الوانها وضعفت قواها فسطت جرائم السل على كريات الدم البيضاء فعطل جهاز التنفس وخرب الرئتين فمنع تطهير الدم من الحامض الفكاربونيك فتبدلت حمرة خدها بالاصفرار واخذت وطأة المرض تزداد عليها يوماً فيوماً فماتت شهيدة ضعف الارادة وسوء التصرف ولم أخوها خطأه ولكنه حمل الذنب على سعيد وعزم على الانتقام منه بدلاً من أمه الجانية . ولما بلغ سعيداً موت شهيرة أسف فناح وحزن عليها وبكى بكاء دعا الى كدر جميلة ولكن تعذر عليها القسم الا بان على ان بكاءه كان من قبيل الاسف على ما عانته من العذاب والشقاء .

وما تخلص سعيد من كل منغص ايقن انه لم يبق عنده شك ولا شبهة في السعادة التي كان يسعى اليها فاتسعت آماله وصار لا يفكر الا في السعادة وصار لا يرى الا ضاحكاً مسروراً وقد نسي ما اتى عليه من قبل وظن انه خلق سعيداً وعاش سعيداً وسيموت سعيداً ولكن فاته قول الشاعر :

وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وذلك ان سعيداً بينما كان راكباً عربته يتجول بها على ساحل البحر في رأس بيروت ويتطلع الى الاوانس اللواتي تتزين لتسحر الالباب وتطغي الشباب ممن يسابقونهن في الزينة والتبرج وسرعة الانتقال من زي الى آخر وهما فريقان بين ساحر ومسحور وعاشق ومعشوق او عاشق محروم وعجوز تفكر في ايام صباها يوم كان الشبان يلتفون من حولها متسابقين في استجلاب قلبها وكان صاحبنا يأسف لذلك العاشق المحروم و يضحك من تلك العجوز الشمطاء التي صبغت شعرها و بيضت وجهها بالذرور ولوّنت خدودها بالصباغ الاحمر لترجع فتاة « وهل يصلح العطار ما افسد الدهر » و يلوم تلك الفادة الدعجاء التي زين الخالق جمالها بعيون نجل تكاد تنتت الا كباد على ما شوهت به نور وجهها من الذرور لتجعله ابيض ولو تركته على طبيعته لكان اجمل وقد تؤثر فيها شدة حرارة بيروت فيكللها العرق و يرسم خطوطاً في غضون خدها المبيض بالبزموت فتشعر بذلك او تنبهها رفيقتها فتخرج منديلا من جيبها مليء بالذرور فتمسح وجهها كأنها تمسح العرق .

ويضحك من الشبان الذين حرمهم الله من نعمة الجمال عند ما يراهم يرفعون سبلاتهم وشواربهم و يزينون طرابيشهم ليستعطفوا قلوب الفادات وربما التفتت اليهم واحدة من قبيل الصدقة والاحسان فيظن ذلك انه اعجبها بطوره وجماله .

ويزداد ضحكه عند ما يرى ذلك الشاب الذي اذا رأى سيدة احنت رأسها لحفرة في الارض رفعت العربة فكان الانحناء اضطراريا يظن ان ذلك كان منها للسلام عليه فيحني رأسه فتضحك من جهله ويحسب ذلك تبسما والتفاتا ويذكر حينئذ قول شوقي

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

ويقول لرفيقه لم يبق بيني وبينها الا الكلام والكلام يجر ما بعده . ويعجب لذلك الفتى الذي لو رأى الآنسة تصلح شعرها بيدها او ترفع غرتها عن جبينها لظن ذلك سلاماً له ووضع يده على رأسه كأنه يرد السلام بدون ان يشعر به حتى تنهره على مكانتها وهي لا تبالي به ولا تنظر اليه .

وبكى اسفاً على المسكينات اللواتي خرجن بقلدن كبيرات العقائل بلبسهن ليجلبن قلوب

الشبان و يعشن بتحريق ثوب عفتهن ونقدهن بدلها دراهم معدودة على انهن يظهرن المحبة لمن لا يطقن ان يراه وانه لا يجدر بالعاقل ان ينظر اليهن بعين الكبر والغرور ويهينهن من اجل بيع شرفهن وعفتهن لمن يردنه اولا يردنه فلو فحص عن الاسباب التي ساقتهن الى ادنى المتاجر لما تأخر عن العذر ووجه سهام الملام نحو غيرهن

ومما كان يأسف له سعيد ما يراه من الشبان الذين لو رأيتهم ونظرت الى لباسهم لحسبتهم من ابناء اغنى الأسر في بيروت على انهم لا يملكون سوى راتبهم الذي لا يتجاوز ثلاث ليرات يأخذونها من الاستخدام في مخزن او متجر ولا يجدون حرجاً في التشبه بالاغنياء وتراهم ابداً شاكين باكين من قلة الدراهم وقد يتخيلون السعادة ولكنهم لا يجدون لها اثراً الا في اميركا فيها جرون اليها وقد يموت الكثير منهم من الجوع او يرجعون ملومين مدحورين

بينما كان سعيد يفكر في الهيئة الاجتماعية و يتأمل هذا المعرض البديع اتاه الخادم مسرعاً فقال له ان سعادة الباشا اتى من سفره وهو مريض مرضاً شديداً فذعر لهذا الخبر ورجع الى المنزل مسرعاً وكان الاطباء اتوا ومرضوه فلازم فراشه واخذ سعيد يستقبل العواد ولكن المرض اخذ في الازدياد حتى قضى الباشا وانتقل الى رحمة الله فجهزه ووارى التراب واحتفل بتأثمه احتفال الابن البار بوالده الفقيد . وهنا انكسفت شمس آمال سعيد وخاف من رجوعه الى البؤس والشقاء لان الباشا كان مستقيم المبدإ فلم يترك لوارثيه سوى الدين واثاث البيت . وحسب صاحبنا الراتب الذي ستناله حماته زوجة الباشا فبلغ أنفي فرش فاطمأن بعض الاطمئنان وأدرك انه لا يزال في عيشة راضية وكانت حملت منه جميلة فصار يفكر في ولده وصار البحث بينه وبينها على ابنهما الذي سيصرفان في تربيته مزيد العناية ليأتي منه انموذج الكمال ومثال الادب و يعلمانه حقائق العلوم في طفوليته ليشب على حب العلم و يتعرى من كل خزافة وقورا تلقينه نواجم احوال اعاظم الرجال وافهم وحقائق الكائنات وانشأ يربأن به عن سماع القصص والحكايات المشوبة بالاكاذيب والعجائب ولما قرب وقت الوضع اخذ سعيد يستجلب الكتب المدونة في تربية الاطفال فيقرؤها هو وامرأته و يعينان الخطة التي يجريان عليها في تربية ثمرة غرامهما حتى وضعت له انثى حسنة الخلق اشبه به من امها فسمياها (خيرية) لعلها تكون مبشرة بالخير وفرحا بها كثيراً ولكنه لم تقض عليهم هنيهة من الزمان حتى فاجأتهما وفاة الحاتم الكبيرة وانقطع الراتب فاصبحت الأسرة حملاً على سعيد ولم يبق لها من ايراد سوى راتبه وهو الف قرش فصرف ما جمعه واقتصده وباع الحصانين لعجزه عن القيام بنفقتهما ورجع الى عالم الاقتصاد والادارة ومع هذا كله كان يمال النفس لطهارة بيته من الادناس و يرى نفسه في راحة من كل عناء .

١٥

في يوم سكنت نأمة النسيم وهب ريح الصبا اعترى صدر سعيد ضيق سافه الى التنزه فبحث عن صديق له ليذهب معه الى قرية من القرى النزهة واذ لم يوفق الى صاحب يرافقه ذهب برأسه واخبر جميلة بذهابه وكان خرج على حصان استأجره فبينما هو يجد في المسير فاجأه رجل كان يعرفه من اقارب رفيق فسلم عليه كأنه اخ حميم ثم سأله عن سفره فاجابه بما قصد فطلب رفقته فقبله وشكر له فضله وقال انه كان يود ان يجد له رفيقاً يتسلى معه فتمت الصدفة ثم اخذا يقطعان الطريق رويداً رويداً وكان الحديث بينهما عن شهيرة فصار ذلك الرفيق يؤاخذ سعيداً ويتسبب اليه القصور وهذا يعتذر ويرجع بالذنب الى امها والى رفيق فما كان من هذا الخبيث الا ان اخرج غدارته واطلق الرصاص عليه قائلاً خذها جزاء عملك بشهيرة فاصاب قلبه فوقع في الارض يقول : آه قتلتني ياخائن . وكانت هذه العبارة آخر كلامه ثم ذهب ذلك اللعين الى مدير الناحية واخبره بانه حدث قتل في المحل الفلاني ففرح المدير لذلك بمجيء الرزق ولكنه لم يكن عنده من انفار الدرك احد لانهم ذهبوا الى القرى يستنشقون اخبار الوقوعات التي حدثت بين الاهالي لانهم اصبحوا بفضل مديرهم يرضون بغدر يقع بينهم واعتداء بعضهم على الآخر لانه لا يستنكف من اخذ الدراهم من الشاكي والمشتكى عليه واصبح من اصابه حيف من جاره يغضي على القذى ويحتمل مصابه بالصبر فانقطعت عنه الواردات فجعل يرسل الدرك والجواسيس ليستطلعوا طلع الوقائع ويأتي باصحاب الحقوق ويدعوهم الى اقامة القضايا فينكرون ذلك وهو بين معلن لهم على حقوقهم ومهدد ان لم يقيموا الدعوى فارسل يستدعي انفار الدرك واخذ يجمع من مرَّ على القنيل ونكلم معه او راء او سمع به ويحبس من يشاء ويضرب من يشاء ويترك من يدفع له فدية النجاة وكان معظم مساعيه في جمع الدراهم لا في اثبات الجرم ولكن اعتراف الجاني بانه كان اخرج غدارته ليراد اسعيد فخرجت الخرطوشة من نفسها خطأ وكان سمع (لاعلم لانه كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب) ان المخطي ينجو من العقاب فلم يسعه الا القاء القبض عليه وارساله الى حاضرة الولاية مع محضر التحقيق . ونقل سعيد الى داره مضرجاً بدمه فلما طرق الباب خرجت الخادمة وفتحت الباب فوجدت سيدها قتيلاً محمولاً في محفة فصاحت ووقعت على الارض مغمى عليها فسمعت سيدتها صيحتها وشعرت باضطراب وارتعدت فرائصها فهمت لتذهب فما تمكنت لانخلال قواها ولكنها جسرت نفسها فسعت ترى ماذا جرى فوجدت رفيقها محمولاً على الاكتاف في لون اصفر والدم خضب وجهه وفمه وصبغ ثيابه ولا حركة به فسقطت على الارض لا حراك بها . وكان الخبيران دخلوا البيت فاخذوا ينبهون

جميلة من غشيتها وادخلوا القليل غرفته ووضعوه على فراشه وبدأ البكاء والنحيب وكان الناس هناك نساء ورجالاً يبكون دماً على هذا الفتى البائس الذي لم يسمع عنه الا الفضائل ولم عرف الا بالكمال واللطف وحسن الخلق وإن العريكة واني طيب البلدية والمستطرف ومعاون المدعي العمومي وعاينوه وامروا بغسله ودفنه فغسلوه وكفنوه وحملوه على الاعناق ليواروه ترابه. ولبؤسه حتى يوم مماته لم يكن في المدينة من اصدقائه احد غير فتى قام بواجباته نحوه ومما ذكر ذلك الصديق انه رأى خيرية ابنة سعيد على يد الخادم تضحك وتقول (باء باء ثوثو دح ثو ثو؟) كأنها عرفت ان اباها نام نومة ابدية وعلمت ان الكفن لباساً جديداً وانه دخل في حياة جديدة وانتقل من دار الفناء الى دار البقاء فلسان حالها يهنئه على خلاصه من البؤس والشقاء وكأنها تقول: انت ذهبت وتركتني انا وامي وعمتي وجدتي في عذاب أليم فهنيئاً لك وبؤساً لنا واسفاً علينا. قال الصديق فما تمثل لي ماحل بهذه الأسرة التعسة ورأيت ابتسامة تلك الفتاة زاد تأثري وبكائي من مشاهدة هذه الفاجعة المدهشة.

فهذا سعيد ولد بائساً فسعد بالاسم وعاش شقياً فسعد بالخيال والآمال ومات تعساً فسعد بالخلاص من الفناء والشقاء فرحمة الله على روحه الطاهرة.

***

اخذت العدلية تنظر في القضية فما وجدت باوراق المدير ما يدل على ثبوت الجرم فشرعت بالتحقيقات وثبت لديها وجود عداوة وضغائن وعلمت بان الفعل نتج عن قصد كما ادعت زوجة سعيد ان القاتل الحقيقي هو رفيق وذلك انتصاراً لأخته التي قتلها هو وامه بسوء تصرفه ولكن نتيجة المحاكمة كان الحكم فيها باكثرية الآراء على القاتل بالحبس ثلاث سنوات. والله يقتص من عباده باعمالهم وهو العليم الحكيم اه